

المجلد: 05 / العدد: 02 / (2021)، ص 500-512

صورة الآخر البلقاني في رحلة سعيد خطيبي
المسماة جنائن الشرق الملتهية رحلة في بلاد الصقلية

The image of the Balkan Other in Saeed Khatibi journey called the
Flaming Gardens of the East, a journey in the land of the Saqlabah

د. نعار محمد

naar1976mohmed@gmail.com

جامعة تيارت

(الجزائر)

تاريخ النشر: 2021/12/02

تاريخ القبول: 2021/08/30

دهلي أحمد *

Ahmed.Dahli@univ-tiaret.dz

مخبر الخطاب الحجاجي أصوله ومرجعياته وأفاقه في الجزائر

جامعة تيارت

(الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2021/06/23

ملخص:

تُعتبر الرحلة من أهم الوسائل المعتمدة في عملية تصوير الآخر نظرا لعدد المعطيات التي تُميزها عن غيرها، إذ تمتزج فيها علوم مختلفة على غرار التاريخ والجغرافيا يمتزج فيه الخيالي بالواقعي ككل ذلك من أجل نقل صورة الآخر وتقريبها إلى المتلقي، وهذا ما نلمسه في رحلة سعيد خطيبي الذي حاول تصوير المجتمع البلقاني بصور تراوحت بين الإيجابية والسلبية، معتمدا في ذلك على مجموعة من الآليات التي أضفت عليها الكثير من الواقعية والمصدقية.

كلمات مفتاحية: رحلة، إيجابية، سلبية، الآخر، البلقان.

Abstract:

The trip is considered one of the most important means adopted in the process of portraying the other due to the many data that distinguish it from others, as it mixes different sciences such as history and geography in which the fiction is mixed with the real all in order to transfer the image of the other and bring it closer to the recipient. Balkan society with images that ranged between positive and negative, relying on a set of mechanisms that added a lot of realism and credibility to it

Keywords: journey ; positive ; negative ; other. balkans

مقدمة

* المؤلف المرسل.

يعتمد المشتغل في حقل الصُّورائية على جملة من التقنيات والآليات التي تمكنه من ولوج عالم الآخر، ووفق هذه التقنيات شكّل أدب الرحلة منذ زمن ليس بالقريب أحد أهم الوسائل الموظّفة لتحقيق تلك الغاية (معرفة الآخر) ويرجع ذلك لجملة من الاعتبارات، ولقد عرف الأدب العربي عموماً والجزائري على وجه الخصوص عدداً كبيراً من الرحلات التي دونتها وحفظتها كُتب التاريخ والأدب المختلفة واستمر الأمر إلى غاية العصر الحديث، ومن جملة الرحلات في العصر الحالي نجد رحلة "سعيد خطيبي" الموسومة بـ"جنائن الشرق الملتهبة" نقل لنا من خلالها صوراً مختلفة عن المجتمع البلقاني من جوانب متعددة. وعليه: ما طبيعة الصور التي رصدها "سعيد خطيبي" في رحلته جنائن الشرق الملتهبة حول الآخر البلقاني؟ وهل تمكنا من بلورة رؤية شاملة حول المجتمع البلقاني؟

ومن أجل الإجابة عن هذه الإشكالية نطرح جملة من الفرضيات، أبرزها:

- يتراوح مجموع تلك الصور في جانبها السلبي وذلك يرجع لكون المجتمع يعيش في ظروف صعبة على جميع المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وحتى التاريخية، فلقد مرّ عبر تاريخه بالعديد من المحطات التي جعلته يعيش أيام حالكة وهو مجهول من حيث العادات اليومية للمجتمع الجزائري بالدرجة الأولى وغير مُتقبل لوجود الآخر المختلف.

- تتراوح تلك الصور بين الإيجابية والسلبية فالمجتمع البلقاني استطاع أن يتجاوز مخلفات تلك الأوضاع المأسوية واستطاع أن يرسم لنفسه صورة إيجابية. في مقابل بعض الصور السلبية التي ستتحسّن بمرور الزمن. سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية استجلاء مختلف الصور التي رسمها "سعيد خطيبي" عن الآخر، بالإضافة إلى تحديد آليات نقل الصور التي اعتمدها، ولتحقيق ذلك حاولنا في البداية تحديد معالم الآخر من الناحية العمرانية التاريخية والدينية بالخصوص، ومن ثم الكشف عن مختلف الصور الاجتماعية التي رصدها "سعيد خطيبي" عن المجتمع البلقاني، والكشف عن مختلف الصور الثقافية التي رصدها.

1. مفاهيم حول الموضوع

أ. مفهوم الصورائية

لقد شهد مصطلح الصورائية العديد من التعريفات من طرف المشتغلين في هذا الحقل ومن جملة التعريفات ما يعرفه السعيد علوش بقوله: "اصطلاح ظهر في الأدب المقارن ليشير إلى دراسة شعب عند آخر باعتبارها صورة خاطئة... وتعتمد الصورولوجيا على مفاهيم الدرس السيكلوجي و السوسيولوجي"¹ استناداً إلى هذا التعريف نجد أن علم الصورة هو علم دراسة الآخر في كتابات الأنا، حيث أنها من خلال تناول عمل معين تعمل على تحديد الظروف والملابسات التي كانت وراء تشويه صورة الآخر. يعتمد هذا العلم في بناء تصوراته على جملة من العلوم المساعدة من بينها علم الاجتماع وعلم النفس وغيرها.

ويرجع الاهتمام بهذا العلم كما توضحه لنا مديحة عتيق: "مع بدايات القرن التاسع عشر... على يد مؤسسي المدرسة الفرنسية إذ تطالعنا كتابات بول "فان تيغم" وزملائه بإشارات متواترة لمفهوم الصورة وعلم الصورة"² تبين لنا مديحة عتيق من خلال هذا القول أن الريادة من حيث التأسيس الأكاديمي والمنهجي لهذا العلم كانت من نصيب المدرسة الفرنسية، على يد ثلة من أعلامها على غرار بول فان تيغم.

وتلعب الصورائية دوراً محورياً في عديد الميادين بالخصوص مع الذات حيث ترى "ماجدة حمود" في هذا الصدد: "أن الذات تدرك نفسها حين تتعامل مع الآخر، إذ تتشكل ويعاد تشكيلها في المواجهة مع الآخر ولذلك فإن أي تشويه في النظرة للآخر لابد أن يعني تشويهاً كامناً في الذات وكما يرى الان تورين في كتابه " نقد الحداثة " ليس هناك من خبرة أكثر أهمية من العلاقة مع الآخر إذ يتشكل الطرفان كذوات وحين يتم الاعتراف بالآخر أي بكونه ذاتاً تندفع الذات إلى المشاركة في جهود الآخر من أجل التحرر من العراقيل التي تمنعه من الحياة الإنسانية الكريمة" ³ من خلال هذا القول تكشف لنا ماجدة حمود أن الطريقة الأمثل لفهم الذات لا يكون إلا عبر فهم ذلك الآخر. حيث أنه من خلال فهم الآخر تتضح رؤية الذات لذاتها، وتحدد وفق ذلك مكانتها والأمور المتعلقة بشؤون حياتها المختلفة وكذلك تحدد موقعها في العالم، حيث أنها تحدد الأمور الواجب تجاوزها والأمور التي يستوجب المحافظة عليها. ووفق هذا الطرح فعملية فهم الآخر تعود على الذات بأكثر من فائدة على أصعدة مختلفة .

ب. أدب الرحلة

لقد عرف مفهوم أدب الرحلة الكثير من المحاولات لتحديد مفهومه ومن ذلك ما تعرفه " سميرة أنساع" بقولها: " هو عملية وصف أحوال البلدان في مختلف مجالات الحياة " ⁴ من خلال هذا القول نجد بأن الرحالة يقوم بعملية مسح شامل لجميع الميادين للبلد التي يسافر إليها وعلى أصعدة مختلفة ومن جملة هذه الميادين، الآخر ففي خضم تجواله وترحاله يقدم صورة عنه لذات تمكنها من التعاطي معها بكل دقة فمساهمته في هذا الميدان من الأهمية بما كان بالمقارنة مع باقي الألوان التعبيرية تعتبر الرحلة ذات قصب السبق وهذا ما تبرزه لنا " سميرة أنساع" حيث تقول: " يعد من الألوان التعبيرية الأولى، التي تعتمد السرد بضمير المتكلم وتعبّر عن الأنا مع انفتاحها على الآخر. وتقديمها صورة عنه منطبعة بأحاسيس الإعجاب، أو الاعتزاز بالذات وهي من الألوان القصصية التي توفر لقارئها المتعة، والتشويق " ⁵ فهو ينقل صورة الآخر بكل أمانة ودقة، لأن الرحالة يعايش الآخر عن قرب حيث يصبح لديه بمثابة الكتاب المفتوح. يتمكن بواسطة تلك المعاشية من معرفة كل كبيرة وصغيرة عن ذلك الآخر في نواحي مختلفة .

01- البيئة العمرانية التاريخية والدينية للآخر في جنائن الشرق الملتهبة:

لقد وقف "سعيد خطيبي" في رحلته على أهم الأماكن التي تشكل معالم البيئة العمرانية بالخصوص من الناحية التاريخية والدينية، ذلك أن "تفاعل الأمكنة في مستواها التخيل يعدُّ مكوناً أساسياً من مكونات الممارسة النصية برؤاها الفنية ومعطياتها الجمالية وما لها من امتدادات دلالية، إذ يقتضي استكناه هذا التفاعل في سياق النصي بين بعده الواقعي والتخيل في دلالاته على حركتيه وبخاصة إذ ما تعلق الأمر بنوع خاص من الكتابة ممثلة في أدب الرحلة." ⁶ حيث أن توظيف هذه الأماكن يتعدى البعد الزماني والمكاني لها ويمكن المتلقي من تكوين صورة عن طبيعة المجتمع في المرحلة الماضية والآنية .

1-1- البيئة العمرانية التاريخية :

أ- القلعة:

تعدُّ القلعة أحد أهم الأماكن التاريخية التي تحتل مكانة مرموقة في تاريخ دول أوروبا عموماً ودول البلقان على وجه الخصوص، ومن القلاع التي وقف عندها "خطيبي" في هذا الشأن قلعة "ليوبليانا" يقول: "ومن الدّاخل تلتف المدينة حول قلعتها التاريخية lyebljanski.grad والتي نصل إليها بعد قطع نهر ليوبليانيتسا ... وليوبليانا تزين لزوارها بتزين قلعتها، مقر إقامة دوقية كارنثيا قديماً، والواقعة على ربوة، تسرق انتباه السائح، وتلج عليه بزوارها، مع أنّها تبدو من الداخل جد عادية، بياحة واسعة، وأعمدة رومانية وفسيفساء معمارية متنوعة... بُنيت بدايات القرن الثاني عشر، وتحولت في بداية القرن الثامن عشر إلى مستشفى عسكري ثم إلى سجن، ولم تستعد هويتها الأصلية سوى بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، لتتخذ لنفسها بعداً سياحياً وثقافياً بداية التسعينيات بعد استقلال سلوفينيا عن يوغوسلافيا 1991، حيث صارت تحتضن نشاطات فنية وأخرى ترفيهية".⁷، نلمس من خلال وصف "خطيبي" للقلعة -التي تُشكل أحد أهم الروافد التاريخية للمجتمع السلوفيني- أنّ هذا الأخير مجتمع يحاول أن يحافظ على الهوية التاريخية التي تشكلت مع مرور الزمن ويفرض أن يفرض فيها، ويحاول في الوقت ذاته أن يتكيف مع المتطلبات والضرورات التي يملئها واقع العصر حيث أنه جعل من القلعة مستشفى عسكري في عز الحرب العالمية ثم سجناً. وبعد أن وضعت الحرب أوزارها تم تحويلها إلى مزار سياحي، وفي ذات الصدد نستشف أنّ المجتمع مجتمع برغماتي يبحث عن المنفعة العامة بالخصوص عندما تم تحويل القلعة إلى مقر لمختلف الأنشطة الثقافية لتعود بالنفع من الناحية الاقتصادية، وتحرك في الوقت ذاته عجلة الثقافة التي كانت تعاني من ركود في ذلك البلد الخارج لتوه من دائرة الحروب.

لقد اعتمد "سعيد خطيبي" في نقل صورة القلعة على نمط من التصوير والذي يُعرف في عرف الرحالة بـ"المشاهدة" والتي "تعدُّ من أكثر الأنماط موثوقة حيث أنّها تُعطي مصداقية كبيرة لصورة المسجلة وترجح فرضية قبولها بشكل أكبر لدى المتلقي، فالرحالة في هذه الحالة يكون معانين لما ينقله"⁸، وهذا ما يجعل أدب الرحلة من أكثر الأجناس الأدبية التي يمكن أن تلبّي متطلبات البحث عن صورة الآخر لأنّه ليس "بحثاً في التاريخ ولا وصفاً جغرافياً... كما أنّه ليس قصة قصيرة أو رواية أو قصيدة شعر وإنما هو هذا وذاك ومن ثمّ يكتسب خصائصه المتميزة وطعمه العذب... وقدراته في الوقت نفسه على تلبية مطالب المؤرخين والجغرافيين والأدباء الذين يطمحون لمعاينة الوقائع وسبر أغوارها العميقة".⁹ هذه الأمور التي تجعل من أدب الرحلة في المرتبة الأولى من الأهمية، لبناء صورة شاملة حول الآخر بالمقارنة مع باقي الأجناس الأدبية الأخرى.

ب- القصر:

يقف "خطيبي" عند أهم القصور التي تُشكل المرجعية التاريخية لدول المجتمع البلقاني ويتجلى في قصر "غراد" ويورد المقطع الآتي: "معمار قصر غراد يعود إلى مرحلة فترة النهضة بني عام 1510 - ومراً عليه قادة الإمبراطورية المجرية - النمساوية... قبل أن يصل إلى تيتو نهاية الحرب العالمية الثانية، يتميز بمخططه رباعي الشكل أعمدته الرومانية الطويلة، واجهته التي تقوم على خط عمودي وسقفه المزين بمنحوتات في الخارج تحيط بها غابة تتضمن بحسب ما قاله لي مرشد سياحي ما لا يقل عن ثمانمائة نوع نباتي مختلف".¹⁰ هذا بالنسبة لتاريخية القصر أما من ناحية التهيئة بالتحديد في فترة "تيتو" يقول سعيد خطيبي: "في قصر غراد زرت جزءاً من حياته الحميمة، خصوصاً مكتبته الشخصية. يذكر المؤرخون أنّ

زعيم يوغسلافيا كان كلما سمع عن كتاب أو أحب كاتباً أمر بترجمته إلى اللغة الصربية-كرواتية، لغته الأم، ولغة البلقان سابقا. على مدخل القصر نزعت حذائي ولبست جوربا بلاستيكية استجابة للتعليمات، وطففت على مخيلتي أسئلة كثيرة، وعلامات استفهام عن طبيعة مقتنيات تيتو الشخصية، مظاهر الترف والبذخ في حياة زعيم عاش ثلاثة عقود كاملة بلا معارضة فعلية... في البداية، خيل لي أنني سأدخل بيتا من ذهب وفضة... ولكن بمجرد دخول البهو تغيرت الانطباعات الذاتية، وتلاشت الصور المسبقة والكليشيات. قصر أشهر زعماء العالم الثالث... عراب حركة الانحياز... لم يكن مُكونا سوى من طابقين أرضي خاص بالنشاطات الرسمية وعلوي شخصي يطغى عليه البعد المعماري السلافي، غير المبالغ في تزيين الجدران وفرش الأرضية.¹¹ من خلال هذا المقطع الوصفي -لقصر أحد أعظم الشخصيات التي سجلت اسمها بأحرف من ذهب في التاريخ العالمي عموما والبلقاني على وجه الخصوص- نجد أنّ تيتو إنسانٌ يميل للبساطة، ويرفض كل المظاهر التي تشي بالخيلاء والتكبر، يتوجه للحياة البسيطة. وبالقياص على الكل نلمس أن المجتمع البلقاني يميل إلى طابع البساطة في العيش ولقد اعتمد "خطبي" في هذا المقام على نمطين من التصوير: حيث جمع بين المشاهدة، وفي المقابل اعتمد على النّقل من الكتب أو ما يصطلح عليه بالسمع والأخبار"ويأتي هذا النمط تاليا للمشاهدة والمعايشة من حيث دوره في بناء نصوص الرحلات وكذلك من حيث التيقن من مصداقية الخبر"¹²، ونستشف من خلال هذا المقطع أن خطبي حاول أن يزاوج بين الرؤية الراهنة والرؤية الماضية حتى يمنحنا نظرة أوسع عن طبيعة المجتمع البلقاني، وهي نظرة لا محالة تمكّنا من فهم طبيعة المجتمع البلقاني عن كتب .

2-2- البيئة الدينية للآخر:

أ- الإسلام:

يمكن أن يتلمّس الباحث في هذه النّاحية أشياء كثيرة عن حقيقة المجتمع البلقاني ومدى تفاعله مع المختلف دينيا، حيث تُعدُّ أهم المعايير التي من شأنها إعطاء صورة توضيحية بنسبة كبيرة جدا، ويُعطينا الوصف المكاني الذي قدمه خطبي صورة عن تركيبة المجتمع من هذه الناحية، حيث أن المتأمل فيما قدمه "خطبي" من أوصاف يلمح أنّ المجتمع في رؤيته نحو الآخر المختلف دينيا خصوص المسلم مقبولة بشكل كبير، حيث يتجلى ذلك في وصفه المسجد ودوره ومن بين جملة تلك المساجد نجد مسجد زغرب - على سبيل المثال لا الحصر- حيث يقول: "تبدو صومعة المسجد البيضاء وقبائها الخضراء، والذي كان في الحقيقة مركزا إسلاميا متكاملا، يضمُّ مسجدا ومركزا لتدريس العربية وعلوم القرآن... وأذهب إلى المقصورة لمصافحة الإمام الشاب والتحدث معه قليلا كان شابا كرواتيا في الثلاثينات من العمر يلبس رداءً أسود ويعتمر عمامة تركية سوداء وبيضاء، هنا مفترق طرق مسلمي كرواتيا يأتون للصلاة ولللقاء وللتحدث والتعارف أيضا، يقول فالمسجد يقوم بدور محوري في تنظيم حياتهم اليومية وفي رسم معالم حضورهم في المجتمع عموما كما يتكفل بعقد قران المسلمين الكروات وفق التعاليم الشرعية."¹³ فمن خلال هذا الوصف الذي قدمه لنا "خطبي" حول المسجد سواء من الناحية العمرانية أو من ناحية الدور المنوط به نستشف

أنَّ المجتمع الكرواتي متقبل للمختلف عنه ويشكل معه مجتمعا متماسكا ينصهر تحت مظلة الكيان الواحد. ولقد امتزج وصف المسجد بالإعجاب من ناحية البناء أو من حيث الدور المنوط به. ويتجلى ذلكم القبول في وصف آخر لأحد المساجد حيث يقول: "ففي زيارة إلى مسجد سلطان فاتحوف أو الشيخ المغاري وقت صلاة الظهر واجهنا التَّاريخ بكل عراقته، المسجد بُني أيام الباي عيسى منتصف القرن الخامس ميلادي، ليدمر بسبب حريق ويعاد بناؤه عام 1766 وهو مسجد يتكون من قاعة بشكل مستطيل وقبة ومنارة، وأسقطت أيام الحرب عام 1992 وأعيد بناؤه عام 2000... في حالة من التنظيم الخلاق، دونما أي تجاوزات أو إشكالات".¹⁴ يستشف المتأمل لهذا الوصف الذي جمع فيه "خطيبي" بين المادي والمعنوي أنَّ المسجد أصبح بمثابة الشرطي المنظم لحياة الفئة المسلمة، ونستشف من خلال الوصف كذلك وأنَّ المجتمع البلقاني يشكل كيان متجانس يحول التخلص من آثار الحرب التي كادت أن تعصف بوجوده.

ب- المقبرة:

"على مدخل المقبرة لافتة كتب عليها: "المقبرة المخدلة لضحايا الإبادة الجماعية التي وقعت في سيربرينيتسا وبرتشاري عام 1995 بالخطو ثلاث خطوات نحو الأمام بلغني صوت المقرئ أحمد العجمي وهو يرتل سورة مريم. بالقرب من مكبرات الصوت، حيث تتوالى باستمرار أدعية وسور قرآنية... نصب رخامي بارتفاع متر ونصف بشكل نصف دائري وبطول 200 متر كتب عليه أسماء حوالي 6000 ضحية من ضحايا جيش صرب البوسنة... ثم نرى على مدى البصر قبورا قبورا.. لا شيء آخر غير القبور غير رائحة الموت، بقايا دموع وأشباح الآخرة".¹⁵ في هذا الوصف نلمس على غرار المثال السابق جمع "سعيد خطيبي" بين المادي والمعنوي أو بعبارة أخرى النفسي حيث نلمس عقب الخوف والرغبة من التاريخ المخيف للمجتمع البلقاني الذي يحاول أن يتجاوز به بكل السبل الممكنة.

ج- المكان المسيحي:

يرصد لنا "سعيد خطيبي" في هذا الصدد جملة من الأماكن التي تمثل الديانة المسيحية ولقد اتسم تصويره بكثير من الأمانة فصور تلك الأماكن من الناحية الشكلية ومن بعض الجوانب الأخرى التي لها علاقة من مستويات مختلفة بالمكان ومن جملتها الكنيسة على غرار "الكنيسة النيو قوطية التاريخية... أول ما يواجه الزائر على الجزيرة هو درج طويل يصعد إلى الأعلى تقول الأسطورة أنَّ العريس كان يحمل في الماضي عروسه بين يديه على طول الدرج الكبير ويصعد بها إلى الأعلى ويدقان معا جرسهما إعلانا عن ارتباطهما الأبدي... أما اليوم فالجمعُ تحلى عن تلك العادة ولا أحد صار يزور تلك الكنيسة الخالية من المتعبدين طول الوقت... بعدما تحولت مع محيطها العام إلى نقطة جذب سياحي لا ديني".¹⁶ من الملامح القليلة التي يذكر لنا فيها عادات وتقاليد المجتمع البلقاني. في ذات الصدد يرصد لنا كذلك "كاتدرائية سان ميشال الواقعة بالقرب من السفارة الفرنسية، كان الوقت زوالا... واليوم الأحد وفي الداخل عروسان يحتفلان بزفافهما وروائح بخور وورد متناثرة وأدعية متصاعدة من جنات الكاتدرائية الأربع...".¹⁷ من خلال هذا الوصف الذي قدمه لنا "سعيد خطيبي" حول جملة الأماكن التاريخية والدينية "نجد أنَّ المكان الذي ينجذب نحوه الخيال لا يمكن أن يبقى مكانا لا مباليا ذا أبعاد هندسية فحسب فهو مكان

قد عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط بل بكل ما في الخيال من تحيز إننا ننجذب نحوه لأنه يكشف الوجود في حدود تتسم بالجمالية.¹⁸ وهذا ما يلمسه المتلقي منذ اللحظة الأولى حيث يجد أنَّ "سعيد خطيبي" نحو تلك الأماكن أنها تشي لها بجملة من الصُّور التي تتجاوز حدود المكان الهندسي مرور إلى الوجودي حيث أنه يرى من خلاله صورة للمجتمع من نواحي مختلفة، والمتأمل في طبيعة التصوير يجد أنَّ الأماكن في أغلبيتها أخذت تلك القيمة الجمالية وهو ما ينعكس بالضرورة عن صورة رؤية إيجابية عن المجتمع الموصوف.

3- الأبعاد الاجتماعية والثقافية في جنائن الشرق الملتهبة:

3-1- الأبعاد الاجتماعية:

في هذا المنحنى يرصد لنا "سعيد خطيبي" جملة من الصُّور السلوكية التي تطبع يوميات المجتمع البلقاني عموماً والتي تراوحت بين الإيجابية والسلبية.

3-1-1- الناحية الإيجابية:

يتسم المجتمع البلقاني بمختلف الدول المشكلة لكيانه من خلال الصور التي قدمها "خطيبي" بجملة من الصفات التي تجمع بين الإيجابية والسلبية، فأما على المستوى الإيجابي نجد:

أ- المجتمع المحافظ:

يبدو المجتمع البلقاني من خلال الصور التي رصدها المؤلف بأنه مجتمع محافظ من عدة نواحي أهمها: الناحية الأخلاقية، كما ورد في قوله: " كان بعض السواح قد بدأوا في التحلق في مجموعات، والنزول إلى الماء، جماعة جماعة، مطمئنين حول أغراضهم الشخصية، الموضوع على الضفة، غير قلقين من إمكانية سرقة حاجياتهم ... في بلد يشتهر بكونه واحد من أكثر دول العالم أمناً"¹⁹، من الصور الإيجابية الأولى التي يرصدها لنا خطيبي هو الأمن المنشر بكثرة بين أفراد المجتمع، دونما حاجة لشرطة تضبط أو توجه سلوكهم، وفي ذات السياق -الصورة الإيجابية - يقول خطيبي: " على خلاف ما نراه في شواطئ مدن أوروبية أخرى، تبدو الحشمة عنصراً مهماً في سلوكيات السلوفينيين والسلوفينيات، فالنسوة يسترن جسدن ما أمكن قبل النزول إلى الماء، كما لا نجد هناك شواطئ لسباحة العراة"²⁰، ونستنتج أيضاً من هذا القول أنَّ السلوكيات التي تضبط المجتمع البلقاني تتميز في معظمها بالنزوع نحو السلوك المحتشم المحافظ، الذي يبرز الوجه العام الذي تسير عليه ضوابط هذا المجتمع، ولا يقتصر على ناحية معينة من الحياة بل يمس جميع الجوانب الممكنة، على غرار الممارسات اليومية كالبيع والشراء، مثلما نلمسه في قوله: " كان يجتمعُ باعة الخضار والملابس والأغراض المنزلية، في سوق شعبية صغيرة مفتوحة على الهواء الطلق، تلتئم في السادسة صباحاً، وتتقضي في حدود الرابعة بعد الزوال، ولما يغادر الباعة المكان فلن نجد وراءهم بقايا مرورهم، ولا أكوام قمامات... التجارة تخضع لمعايير تنظيمية صارمة والعملية تتم في ظروف نظيفة وصحية، بشكل يحافظ على الوجه الحسن لوسط البلاد"²¹، نجد من خلال هذا القول بأن السلوك المحافظ بمختلف معانيه يظهر في جميع الميادين التي تضبط وتنظم سير المجتمع.

ب- الرؤية البرغماتية:

في هذا النطاق يرصد لنا جملة من الصور والمشاهد التي تعطينا نظرة عن الرؤية التي توجه سلوكيات أفراد ذلك المجتمع، والتي تتسم بالبرغماتية التي تصب من الناحية الإيجابية حيث ينظر الفرد البلقاني للمعطيات من منطلق المنفعة التي ستجلبها له ولمجتمعه معا، ومن الصور التي قدمها لنا "خطيبي" وتدل على هذا المعطى ما نلمسه في قوله: "ففي أيام زيارتي كانت كرواتييا قد انضمت لتوها للاتحاد الأوروبي... وكان موضوع انضمامها يمثل محور أهم النقاشات والأحاديث في الصحف وفي الشارع، و سألت بالانجليزية نادل المقهى عن رأيه في القضية، فأجاب وهو يحك ذقنه ويحرك رأسه يمينا ويسارا إن كان الانضمام إلى الاتحاد يفتح فرص شغل جديدة، ويساهم في رفع الرواتب فلم لا؟ هو يربط العلاقة بأوروبا الغربية بتوفر ظروف عيش أفضل، ينظر إلى الأشياء بمنطق برغماتي صائب." ²² إنَّ سلوكيات المجتمع تضبطها وتوجهها المنفعة العامة والذاتية في نفس الوقت، فالمجتمع البلقاني يقدر أهمية الأمور من منظور الفوائد التي سيجنيها من خلفها. وفي ذات الصدد يرصد "خطيبي" بعض السلوكيات التي تدعم الرؤية البرغماتية التي ينظر من خلالها المجتمع، يتجلى ذلك في قوله: "فهم يراهنون، قبل كل شيء على منجزاتهم الشخصية لا على فضائل النظام عليهم... يؤسسون لمشاريعهم الشخصية المستقبلية ويتأففون باستمرار من سياسة الضرائب، رغم أنها ما تزال رحيمة وغير منهكة... لكنهم يرون فيها سببا كافيا ومقنعا للانتخاب أو عدم الانتخاب على برنامج سياسي ما" ²³ من خلال هذا المقطع يُعطي "خطيبي" للمتلقي رؤية صورة إيجابية عن المجتمع بأنه مجتمع يعتمد على النفس بعيدا كل البعد عن التبعية وانتظار ما ستعجزه حكومة بلادهم، في المقابل فهو يزن الأمور بميزان الفائدة، حيث أن كل أمر يجلب له ولغيره من أفراد المجتمع فائدة فهو يقبل عليه.

3-1-2- من الناحية السلبية:

أ- التفاوت الاجتماعي:

في المقابل نلمس بعض الصور الغير إيجابية من ناحية الممارسات الاجتماعية ولعل أبرزها يتمثل في التفاوت الاجتماعي بين قلب المدن وضواحيها حيث يقول: "الصور التي نعرفها عن قلب زغرب النابض ليست نفسها التي نراها في شوارع المدينة والأزقة الخلفية بين الوسط والضاحية شاسع ونمط الحياة والمعمار مختلفان أيضا." ²⁴ نلمس من خلال هذا القول التفاوت بين قلب المدينة الذي يعتبر القلب النابض وفي المقابل إهمال كبير لباقي أجزاء المدينة من جميع النواحي بالأخص النمط العمراني. ولا تعدُّ هذه الخاصية حكرا على مدينة دون سواها بل نلمسه في عديد المدن، على غرار ما يوضحه في قوله وهو يصف مدينة سريفيوا، يقول: "خلف أسوار وسط المدينة تبدأ معالم الوجه الآخر من سريفيوا حياة بسيطة فقيرة صعبة تعتمد على الزاد القليل للاستمرار في الوجود وراء الوجه المنمق للمركز يغرق الهامش في تناقضات معينة عميقة فمتوسط الدخل لا يتجاوز ثلاثمائة أورو وفرص الشغل والتفكير في تأسيس حياة متنقلة مستقرة للشباب طموحات غير متوفرة وإمكانيات التغير ليست متاحة." ²⁵

ب- الفوضى والعشبة:

وهو ما يتجلى من خلال قوله "صوب المدينة العتيقة Starigrad مرورا بمحطة القطارات والميناء القديم، الواقع على ضفاف نهر الصافا، ومحطة البنزين حيث التقطت عيني صورة شابة عشرينية

يافعة، وهي تحاول تنظيم زحمة سيارات متدافعة للظفر بنصيبها من البنزين بأسرع وقت ... الفوضى المنظمة، صراخ، أصوات أبواق سيارات، وحافلات، أناس يركضون، رجال ونساء يعبرون الطريق من غير ممر المشاة.²⁶

ومن ضمن الممارسات غير الأخلاقية التي تصبُّ في إطار الفوضى والعنينة المنشرة في أوساط المجتمع البلقاني نجد انتشار الرشوة التي تنخر وتتقل كاهل المجتمع، ومما يدل على ذلك قوله: "الوضع أيام الرئيس الأسبق يانكوفيتش 1950 كان بحسب شهادات من التقيتهم جد سيء والممارسات الالقانونية كانت تنخر جسد البلد، كل إجراء إداري عادي كان يستوجب دفع المواطن دفع مقابل مادي يكون أحيانا باهظا... والعلاج في المؤسسات الاستشفائية كان من المفروض أن يقدم خدمات مجانية، يلزم المواطن دفع رشواى مقابل الحصول على موعد فحص".²⁷

من خلال هذا القول نجد بأن الممارسات أو الصور الغير أخلاقية ، لا تنبع من طبيعة المجتمع البلقاني ولكنه سلوكيات طارئة وجديدة عليه ، فرضتها طبيعة الحياة التي يعيشها

3-2- الأبعاد الثقافية:

المعطى الثقافي من خلال رحلة خطيبي يجسد لنا صورة للمجتمع البلقاني تتجلى وفق نمطين رئيسين: الأول منفتح أما الثاني فمحافظ.

3-2-1- النمط المنفتح: من الأفعال التي رسمت تماثلات هذا النمط نجد:

أ- فعل الترجمة:

يعتبر فعل الترجمة أحد أهم المرتكزات الثقافية التي يقوم عليها الصرح الثقافي في دول البلقان، وتكمن ضرورة ذلك في الحفاظ على لغته الأصلية من جهة، والانفتاح على مختلف الآداب العالمية من جهة أخرى، وهذا ما يبرزه لنا قول خطيبي: "كان المحل مكتظا برغوف الكتب القديمة المصنفة بحسب نوعها: أدب، فنون، علوم اجتماعية وعلم فلك ... كانت لافتات رفوف الكتب مكتوبة باللغتين الانجليزية والسلوفينية، أمّا الكتب فكانت كلها بالسلوفينية ... وقعت عيناى على أسماء إميل زولا، كافكا، خوليو كوتائر... ورشيد ميموني، نعم وجدت كاتبا جزائريا مندسا بين صفوف كتاب عالمين مترجما إلى السلوفينية"²⁸، نلمس من خلال هذا أنّ فعل الترجمة الممارس في المجتمع البلقاني لا يستثني ثقافة معينة دون أخرى وفعل الترجمة في المجتمع ليس وليد اليوم أو حكرا على طبقة معينة تمارسه فكل الأطياف المكونة لسيرورة المجتمع على غرار الطبقة السياسية مثلما نلمسه مع أحد أبرز الشخصيات في التاريخ السياسي للمجتمع البلقاني، يقول: "في قصر غراد زرت جزءا من حياته الحميمة خصوصا مكتبته الشخصية، يذكر المؤرخون أنّ زعيم يوغسلافيا كان كلما سمع عن كتاب أو أحب كاتبا أمر بترجمته إلى اللغة الصربو-كرواتية لغته الأم ولغة البلقان سابقا"²⁹، ومن خلال هذا القول نجد بأن فعل الترجمة واكب تاريخ المجتمع البلقاني وسار معه في مراحل تاريخه المختلفة الحقبات، الأمر الذي يجعل منه مجتمعا متجددا باستمرار، "فالشعب الذي يستقبل آداب الشعوب الأخرى ويستوعبها لا محال سيستثمر ذلك لإنتاج معارف ذات

جودة وتنوع ثقافي تسهم في جعله مجتمعا عالميا مواكب لتطورات العصر³⁰، ففعل الترجمة يجعل من المجتمع المستقبل مجتمعا مواكبا لمتغيرات العصر مواكب لمتطلبات الحضارة العصرية

ب- فعل الغناء:

يشهد المجتمع البلقاني في ظل الانفتاح على مختلف الحضارات أنماطا مختلفة من الأشكال التعبيرية الوافدة من مناطق مختلفة من العالم . على غرار الغناء المتمثل في نمط الراب القادم على المجتمع من البيئة الأمريكية نلمحه في هذا القول: "التقيت باستيان 22 سنة تقدم نحوي ليسلمي بطاقة دعوة لحضور حفلة راب كانت ستقام الليلة ذاتها في المكان نفسه، يشارك فيها رفقة شباب هاو من مختلف أحياء المدينة... ودون مقدمات انخرطت في دردشة مع باستيان الذي كان يرتدي قميص فريق شيكاغو بولس الأمريكي الأحمر... حيث تحدثنا عن الراب وعن فرقته الفتية".³¹ حيث أن المجتمع البلقاني يحاول أن يبقى مطلع على الغرب في جميع الميادين المختلفة فالرقص الممارس من طرف الشباب يدل على أن هذا المجتمع غير منطوي على نفسه متقبل لثقافة الآخر المختلف عنه ، وليس لديه أي إشكال في ممارستها أو تبنيها

و في المقابل نلمس الطابع المحافظ من الجانب الثقافي لذلك الآخر البلقاني ، ويتجلى ذلك في:

أ. البعد اللغوي

فعلى مستوى التعاملات اللغوية يظهر بأن المجتمع البلقاني،مجتمع محافظ متمسك بكل ما يمكن أن يشي بثقافته وقوميته التاريخية ويقول في هذا الصدد خطيبي : " كما لو أنني أجلس في مدينة متوسطة ... قابلتني وجوه هادئة، بعضها أشقر،وبعضها تعلوه مسحة سمراء خفيفة ... لولا اختلاف اللغة، وتمسك الكروات بلغتهم الأم بشدة ،وتراجع انفتاحهم على لغة الجار المتوسطي إيطاليا،أو لغة المهيمن الأمريكي :الإنجليزية لخليل للزائر أنه في مدينة جنوبي فرنسا "³²، المجتمع البلقاني محافظ على لغته الأم التي تعتبر أحد الأعمدة التي تشكل أبرز مقومات الهوية، وفي ذات الصدد يورد قوله: " لما وصلت بيت تروربار كان الوقت ظهر، وغالبية النشاطات تقام عادة مساء وكانت لي دردشة سريعة مع موظفة الاستقبال الأربينية، وفرصة للاطلاع على منشور يعرف بنشاطات المؤسسة المتنوعة والمنفتحة على الثقافات الأجنبية، وقراءة جانب من سيرة الرجل الذي تحمل المؤسسة اسمه "بريموش تروربار 1508.1586 رجل دين ونحوي،وواضع قواعد اللغة السلوفينية،واللغة تعتبر أهم عنصر من عناصر هوية البلد.ترك خلفه 25 كتابا وترجمة للإنجيل إلى السلوفينية ...يعتبر يوم ميلاده 8جوان عيدا وطنيا، وقطعة واحد أورو تحمل صورته "³³ من خلال هذا الوصف الذي يقدمه لنا خطيبي نجد مقدار الحفاوة التي يحظى بها "تروربار"،والذي يعتبر من أحد أهم وأشهر أقطاب الأدب واللغة في المجتمع، فلقد خلف ميراث معتبر في ميادين متعددة ، الأمر الذي جعل منهم يعملون على تخليده في ذاكرة الأجيال المتلاحقة من خلال العمل جعل يوم ميلاده عيد وطني وفي المقابل طبع صورته على العملة الوطنية . يلمس المتأمل لهذا الوصف صورة عامة حول الطابع المحافظ الذي يتميز به هذا المجتمع ، وأن اللغة أمر متأصل في تاريخ المجتمع البلقاني لا يعمل على المحافظة عليه فقط ولكنه يلقنه للأجيال اللاحقة من أجل الاستمرارية ، ويستخدم في ذلك وسائل عديدة ومختلفة .

- الخاتمة

- وفي نهاية هذه الورقة البحثية يمكن أن نوجز النتائج المتوصل إليها كالآتي:
- يعتبر أدب الرحلة من أهم الأجناس الأدبية التي يمكن الاعتماد عليها في رسم صورة الآخر، وذلك يرجع للخصوصية التي يتميز به ولعل أهمها أنه يعطي احتكاكا مباشرا مع الآخر دونما أي حواجز أو عوائق.
 - إن المشتغل في حقل أدب الرحلة يجمع بين عدة علوم على غرار التاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع.
 - من مميزات المشتغل في أدب الرحلة أنه يجمع بين الواقع والخيال دون طغيان أحدهما على الآخر.
 - من الناحية الدينية تتخلل المجتمع البلقاني صور عديدة تظهر لنا تذبذب بين القبول للطرف المختلف دينيا وبين الرفض له، ومن جملة تلك الصور التي تُظهر لنا ذلك التذبذب، الأماكن الدينية التي يرصدها لنا خطيب، على غرار المسجد حيث أنه في بعض المناطق يؤدي الدور المنوط به وأكثر وفي بعض المناطق لا يتم ذلك بصورته الطبيعية.
 - تُظهر لنا الصور التي رصدها لنا خطيب حول المجتمع البلقاني من الناحية الأخلاقية أنه ينجح للمحافظة والسلوك المعتدل في أغلب جوانبه .
 - على غرار الممارسات السلوكية التي رصدها خطيب لتجار الأسواق و كذلك الأمن المنتشر بكثرة ولكن من الناحية الأخرى يرصد لنا بعض السلوكيات الغير سوية على غرار الرشوة والفساد الإداري لكن نجد بأنها قليلة، والأمر الثاني أنها سلوكيات طارئة في ذلك المجتمع فرضتها ظروف خارجة عن طوعه، مما يرجح السلوك المعتدل
 - طبيعة التفكير السائدة في المجتمع البلقاني حول طبيعة الأمور المستجدة في حياته - مثلما نلمسه في الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي - مبني على الفائدة العامة أي ماذا سيفيد المجتمع من جراء هذا الفعل .
 - من الناحية الثقافية يتميز المجتمع البلقاني بنمطين مختلفين الأول منفتح على الآخر ومن جملة مظاهره، فعل الترجمة والذي يتسم بطابع الرسمية، وهذا الفعل ليس وليد اليوم وإنما هو استمرار لسيرورة تاريخية تبناها المجتمع البلقاني بمختلف طبقاته بما فيها السياسية. والمظهر الثاني يتجلى في فعل الغناء وهو أحد أهم المظاهر التي تعطينا رؤية حول طبيعة الانفتاح على الآخر الذي يتبناه المجتمع البلقاني .
 - أما النمط الثاني فيظهر في المحافظة على اللغة الأم من خلال العمل على الاحتفاء بكبار اللغويين وفي ذات الوقت ترجمة مختلف الأعمال للغة الأم ، فاللغة تشكل في ضوء الفعل الثقافي البلقاني لبنة أساسية لا يمكن الاستغناء عنها بأي شكل من الأشكال في بناء مشروع الهوية البلقانية .
 - من خلال هذه النتائج المتوصل إليها نجد أو نلمس بأن من جملة الفرضيات التي تم طرحها في المقدمة بأن الفرضية كان لها نصيب من التحقق هي الفرضية الثانية التي تفيد بأن الصور تتراوح بين الإيجابية والسلبية، فالمجتمع البلقاني استطاع أن يتجاوز مخلفات تلك الأوضاع المأسوية واستطاع أن يرسم لنفسه صورا ايجابية. في مقابل بعض الصور السلبية التي ستتحسنُ بمرور الزمن.

إحالات البحث وهوامشه:

1. سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب لبنان، سوشيريس المغرب ، ط1 ، 1985، ص137
- 2 . مديحة عتيق ،فصول في الأدب مقارن -دراسة - ،دار ميم، الجزائر ،ط1 ، 2011 ، ص 43
3. ماجدة حمود، صورة الآخر في التراث العربي، الدار العربية للعلوم ناشرون ، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى، الجزائر ، 2010 ص 9.
- 4 - سميحة أنساعدا . الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري دراسة في النشأة والتطور والبنية . دار الهدى عين مليلة الجزائر ، 2009، ص 30
- 5 - المرجع نفسه، ص 6
- 6 - بركة ناصر، جمالية توظيف المكان في أدب الرحلة في مدينة الضباب ومدن أخرى ، لعبد الله الركبي، دراسات وأبحاث مجلد 7، العدد21، 2015م، ص 416
- 7- سعيد خطيبي ، جنائن الشرق الملتهبة رحلة في بلاد الصقالبة ، دار السويدية، الإمارات العربية المتحدة 2015، ص 24.23
- 8-ينظر بلال سالم الهرواط، صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية،رسالة دكتوراه ، إشراف فايز القيسي ، جامعة مؤتة، العراق، 2008، ص 45
- 9- خليل عماد الدين، من أدب الرحلات ، دار ابن كثير، لبنان، 2005م، ص 6.
- 10- سعيد خطيبي ، جنائن الشرق الملتهبة رحلة في بلاد الصقالبة، ص 42.
- 11- المصدر نفسه، ص 38.37
- 12- بلال سالم الهرواط، صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية، ص 51
- 13- سعيد خطيبي ، جنائن الشرق الملتهبة رحلة في بلاد الصقالبة ، ص 67.66
- 14- المصدر نفسه ، ص 87
- 15- المصدر نفسه ، ص 99.98
- 16- المصدر نفسه ، ص 34.33.32
- 17- المصدر نفسه ص 111
- 18- باشلار غاستون، جماليات المكان، تر: غالب حسا، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1984م، ص 31
- 19- سعيد خطيبي ، جنائن الشرق الملتهبة رحلة في بلاد الصقالبة ، ص 32
- 20- المصدر نفسه ، ص 34
- 21- المصدر نفسه ، ص 56.55
- 22- ينظر: المصدر نفسه ، ص 52. 53
- 23- المصدر نفسه ، ص 71
- 24- المصدر نفسه ، ص 65
- 25- المصدر نفسه ، ص 87
- 26- المصدر نفسه ، ص 110. 111
- 27- ينظر: المصدر نفسه ، ص 133
- 28- المصدر نفسه ، ص 27.26
- 29- المصدر نفسه ، ص 37 .
- 30 - ينظر: عبده عبود ، هجرة النصوص دراسات في الترجمة الأدبية والتبادل الثقافي، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، 1995، ص6،
- 31- المصدر نفسه ، ص 30.29
- 32- المصدر نفسه ، ص 52
- 33- المصدر نفسه ، ص 28

قائمة المصادر والمراجع

- 1- باشلار غاستون، جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1984
 - 2- خليل عماد الدين، من أدب الرحلات، دار ابن كثير، لبنان، 2005م
 - 3- سعيد خطيبي، جنائن الشرق الملتهمية رحلة في بلاد الصقالية، الإمارات العربية المتحدة العربية، دار السويدي، 2015
 - 4- سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب (لبنان)، سوشيريس (المغرب)، ط1، 1985،
 - 5- سميرة أنساعد. الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري دراسة في النشأة والتطور والبنية. دار الهدى عين مليلة الجزائر 2009.
 - 6- عبده عبود، هجرة النصوص دراسات في الترجمة الأدبية والتبادل الثقافي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1995
 - 7- ماجدة حمود، صورة الآخر في التراث العربي، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى الجزائر
 - 8- مديحة عتيق، فصول في الأدب مقارن -دراسة-، دار ميم، (الجزائر)، ط1، 2011
- #### مقالات
- بركة ناصر، جمالية توظيف المكان في أدب الرحلة في مدينة الضباب ومدن أخرى، لعبد الله الركبي، دراسات وأبحاث مجلد 7، العدد 21، 2015
- #### أطروحات دكتوراه
- بلال سالم الهرواط، صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية، رسالة دكتوراه، جامعة مؤتة، العراق، 2008،